الطبيعة الإنسانية

كما يراها ابو العلاء المعري

— ٢ —

الدكتور كيلاني

الطبع والخُلُق

على أن أبا العلاء يرى — بعدُ — أن الأخلاق تختلف وتتفاوت، وفي الشر خيار . فمنها المذموم ، والممدوح ؛ والنافع ، والضار ، والقاسي والرحيم ، وما الى ذلك من حمد الصفات ومرذولها . وهذه الأخلاق تأتلف وتختلف ما شاءت لها خصائصها وظروفها وملابساتها ، ولكن الطبع الفاسد الذي صيغت منهُ الجبلة الانسانية واحد لم يتغير جوهره — مهما تختلف فروعه ومظاهره أو تأتلف — في بعض النزعات المستحدثة الطارئة . الطبع واحد لا يتغير معدنه أبداً مهما يتميز هذا عن ذاك في الأخلاق التي ارتضاها الانسانيّ في حياتهم وتواضعوا عليها وألفوها . فهو يقول :

« ان مازت الناس أخلاق يُعاش بها ... فإنهم — عند سوء الطبع — أسواء »

أو يقول : « والخلق شتّى . ولكن ضمهم خلق ... للشر . لم يلق بعض الناس إفرازا »

« : « تفرع الناس عن أصل به دَرَنٌ ... فالعالَمُون — اذا ميزتهم — كَرَعُ »

« : « سجايا كلها غدرٌ وخبثٌ ... توارثها أناس عن أناس »

« : « لقد فعلوا الخبير القليل نكالاً ... وجاءوا الذي جاءوهم من شرهم طبعا »

« : « وفي الأصل غدر والفروع نوابع ... وكيف وفاء النحل والأب غادر »

« : « فلا تحسدنّا . كلنا ابن لئيمة ... وهل تعنب الأعناب إن لؤم الغرس »

« : « والأرض ليس بمرخوٍ طهارتها ... إلاّ اذا زال عن آفاقها الأنَسُ »

ويتأنق في ذلك الرحل وتراه . فهو يقول :

« جرى الناس مجرى واحداً في طباعهم ... فلم يرق التهذيب أمي ولا خال »

أو يقول : « فأنثى لعصريها نهار وحندس ... وجنسيّ رجال منهم ونساء »

او يقول : «كنا قادرٌ يميل الى الظُّلْـــم ، وصَفْـوُ الأيام للتعكير»
«ورجال الأنام مثل الغواني غيرَ فرقِ التأنيث والتذكير»

الجنس والنوع

ولن يقف سخط المعري عند هذا الحد ، بل هو يرتقي الى لعن الجنس والنوع ، يعني : جنسَ الأحياء وما يتفرع عليه من أنواع الحيوان والحشرات والانسان ، فيقول :

«أرى الحي جنساً قال يشمل عالمي بأنواعه . لا يدرك النوع والجنس»

ماذا ؟ بل إن شبكه ليمتلي حتى يرقى الى العالم العلوي : كواكبَ وسيارات ، وما يمكن أن تحويه من كائنات ، فيسأل : هل تختلف الكواكب والسيارات كما تختلف ؟ :

«وهل الكواكب مثلنا في ديننا لا يتفقن ، فهائمٌ ، أو مسلم ؟»

وهل يمتُّ بعضها الى بعض بصلات المصاهرة والزواج وما الى ذلك ، وهل تصلي كما نصلي ، وتفجر كما نفجر ؟ :

«وتكذب ؟ إن الين في آل آدم خلائق جاءت بالنِّفاق وبالمُكْر»

* * *

على انهُ بعد أن يلعن الانواع والأجناس مجتمعة ، يفرد الجنس الانساني بأوفر قسط من هذه اللعنات ، فيقول :

«فإن كان في دنياك الشر معدن فإنهم — في ذاك — أذكى المعادن»

ويقول : «شر أشجارٍ — علمتُ بها — شجرات أثمرت ناسا
حملت بيضاً ، وأغربة ، وأتت بالقوم أجناسا
كلُّهم أخفت جوانحه ماردآ في الصدر خنّاسا
لم تسقْ عذباً ، ولا أرجاً بل أذيباتٍ وأدناسا»

مركب النقص

ولا يفوته أن يندد بحقراء النفوس الذين يلجأون الى نقيصة الكبرياء ليستروا بها ما تأصل في جبلتهم ، وامتزج بفطرتهم ، من شعور بالهوان والنقص . فيقول :

«لو لم تكن في القوم أصغرهم ما بان منك عليهم كبر»

وفي هذا البيت صورة من أروع الصور التي حللت مركب النقص وحللته في بيان سهل ممتنع أخاذ

الوعظ وسامعوه

وهو يلعن جمهور الواعظين الذين ينصدرون لوعظ الناس ، وهم يضمرون عكس ما يعلنون . فيقول :

«طلب الحسائس وارتقى في منبر ... يصف الحساب لأمة ليهولها
ويكون غير مصدق بقيامة ... أضحى يمثل في النفوس ذهولها»

أو يقول: «رويدك قد غررت وأنت تدب ... بصاحب حياة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحاً ... ويشربها — على تعمد — مساء
يقول : « لقد غدوت بلا كساء » ... وفي لذاتها رهن الكساء
اذا فعل الفتى ما عنه ينهى ... فمن جهتين — لا جهة — أساء »

ومتى انتهى شيخنا من اهداء تلكم اللعنات الفنية الى سادتنا رجال الوعظ ، التفت الى سامعي مواعظهم فأخى عليهم باللائمة ، ووصفهم بأنهم اذ لاحت لهم الغنائم اندفعوا اليها فاتكين، كما تندفع الأسود الضارية الى تمزيق صيدها . فاذا وجّههم الى الخير تبلدت قلوبهم، وأشهروا الحير في غبائها وترددها وبلاهتها ، فقال :

«يرق على المنبر العالي خطيبهم ... وانما يعظ الآساد والنمرا
هم الضباع اذا عُنّيتَ فرائسها ... وان دعوت لخير حوّلوا حُمُرا »

على أنه — مع هذا كله — يرضى بالحقيقة الراهنة، ويوصي بأن نقبل الناس على علاتهم ، فيقول :

« هذي طباع الناس معروضة ... فخالطوا العالم أو فارقوا »

ثم يرتقي في فلسفته العالية في تهوين مشكلات الحياة ، فيقول

« إن جدّ عالمك الأرضي في لعب ... فتعاشم ، فتمثل جدهم لعبا »

الانسان و الحيوان

فاذا قلت له : ان الناس كلهم في مثل صفاته طباعك ، وابعدك عن الأرجاس والدنايا » زوى عنك وجهه غاضباً ، وقال : ما أنا ببدع في الناس ، وما ضعفي بمختلف عن طبعك وطبائع غيرك من الآدميين . فاذا كان ثمة فرق بيني وبينكم ، فهو أني أشدكم ابتذالاً في النقص والشر ، والاقبال على الدنيا الخادعة ، والبعد عن الصلاح . فأنا أظلم كما تظلمون ، وأحسن كما تحسنون ، وأتسبب في الخيانة والبغي مثل ما تتسببون .

« فانت ، وكلنا جن ظلوم ... وضعفك في الخيانة مثل طبعي »

وانت بالحياة الخادعة كما تفتنون ، وأعيش بالخداع كما تعيشون :